أقصوصة سيكلوجية من ثاى بوريل

كيف تنفس فى قلبها الحب

للأستاذ دريني خشبة

كانت تجلس مى وجدّتها العجوز الحَيْزَبون فوق حَيْد الجبل على مقعد خشبى صنع لها خصيصاً فى هـذه الجهة لكثرة ما يَسَّق فيها من الأَيْك ... وكانت السماء ترسل عليها مدراراً من الغيث ، وكان الهواء بالرغم من ذلك دافئاً جميلا منعشاً

وكانت الفتاة تتلو فى كتاب عن الأدب الانجليزى ، والجدة مُصغية ساكنة ، فلما انهمرت شآبيب المطر أقفلت الفتاة كتابها ، وراحت تصغى بدورها لهذه المحاضرة الطويلة الممتعة التى أنشأت جدتها تلقيها فى حماسة عن اللغة والأدب ، وعن دكنز وإليوت وثاكراى وغيرهم من فحول رجال الأدب فى العصر الفكتورى وتنعى على الأدباء فى هذا العصر هراءهم الذى يؤلفون فيه الكتب من غير أن تكون لهم مُثلٌ عليا يؤلفون من أجلها ، ويبشرون بها بين الناس ...

وكانت الجدة لا تبالى أن تضرب لحفيدتها الأمثال بما ورد فى قصص أولئك الفحول عن الحياة والعمل والأخلاق ... والحب ...

فهذه بِكّى شارب بطلة قصة ثاكراى الخالدة (١) لا ترى شيئاً فى أن تنفع زوجها بمجازفة غرامية يكون فيها حبيبها رجلاً شيخاً ضعيفاً ... وهذا لورد لِسْتَر فى قصة سكوت (٢) لا يرى بأساً فى أن تُقتل حبيبته إيمى حتى لا تقف عقبةً فى سبيله إلى عرش انجلترا ... وهذا فلان ، ثم ذاك فلان ... أما فى هذا العصر ... فماذا يصنع الأدباء ؟ !

(١) يقصد المؤلف قصة سوق الأباطيل Vanity Fair

(٢) يقصد المؤلف قصة كنلورث وكانت اليصابات تهوى الورد

وكانت الأمثال التى تضربها الجـدة المتحمسة تطن فى أذن الفتاة الصغيرة كما يطن النحل فى الخلية الفارغة... ذلك أن فؤادها كان خالياً من هذا الوحى الجديد الذي نبه فيه غرائز حواء ، من غير أن تعرف الفتاة علة هذا القَبس المقدس الذى بدأ يذكو فى أعماقها ، والذي نعرف سلفاً أنه فجر الحب وخَيطه الأبيض الجميل

ثم حدث أن أقبل فتى وفتاة فى هـذه اللحظة ، وطفقا يَتَوَقَّلان (١) فى الجبل ، فلما جاوزا ، نظرت الجدة إلى الشاب نظرة المشغوف الظمِئ ... ثم رددت طرفها فى الفتاة كأنما استيقظ فى فؤادها العجوز ماضيه الجميـل الوارف المُندّى ... المفعم بالمغامرات ! !

وصَعّد الفتى والفتاة ... وظلت العجوز تتبعهما بعينيها المشوقتين ... وكانت الفتاة قـد حَسَرت عن ساقيها خشية أن يصيب الوحل حاشية ثوبها الوردى المفهاف ، فبدا جزء عظيم من الساقين الجميلتين ... وكانت تدلف أمام الفتى ، فحسبت العجوز وغالت فى الحسبة ؛ ثم التفتت إلى حفيدتها تقول : « عجيب جداً أمر هذا الفتى وهذه الفتاة ! كل يوم فى هذه الساعة يقبلان إلى الجبل ويصعدان فيه ، ويغيبان فى الدوح ... لن هـذا أمر يثير الشك ، ويبعث على الريب ! تُرى ماذا يصنعان ثمت ؟ شاب ريّان يتدفق الدم حارًّا فى عروقه ، وله قلب ينبض بموسيقى الحياة ، وفم تخرج منه الكلمات عذبة سحرية ، وعينان زرقاوان ترتسم فيهما صوَرُ هذه الدنيا لا كما ترتسم فى عينين سواها ... ووجه مشرق وثغر باسم . يخلو بهذه الفتاة فى تلك الغابة لغير ماسبب ! ومع ذلك فالفتاة غضة يانعة . تتأرج كما تتأرج الزهرة إبان الربيع ويتورد خداها كما تتورد تيجانه ... يا للساقين ! ! أبداً لا يخلب ألباب الشباب مثلهما أبداً ! ! ... »

ثم أفاقت الجدة من سكرتها فوجدت حفيدتها ذاهلة عن

(١) وقل فى الجبل وتوقل صعد

نفسها وقد أخذت القناديل الرائعة التي تحترق في سُوَيدائها تشع السناء من عينيها ، وأرهفت أذنيها تتلقفان الكلام العجيب الحلو الذي كان يخرج من فم الجدة ، والذي لم تكن الفتاة تحسن أن تقول مثله

— « تُرى ؟ فيم تساؤل جدتي عن الفتى والفتاة ؟ ! وفيم خلوتهما بين الأيك في مثل هذا الوقت من كل يوم ؟ وأي شك يثيره أمرهما ثمت ؟ شاب ريان ! ألا ما أجل هذا الوصف البديع وأنا أفهم أن يكون الانسان رياناً ، ولكن ما هذه الدماء الحارة التي تتصبب في عروق هذا الشاب ؟! ذاك شيء غريب لا أفهمه ! وهذه الموسيقى التي ينبض بها قلبه ما ذا تكون ؟ ولماذا تكون في قلبه موسيقى ؟ ولم لا تكون الموسيقى في أذنيه كما هي في آذان جميع الناس ؟ أية موسيقى هذه التي تكون في القلب يا ترى ..؟ وكلماته العذبة السحرية ما هي ؟ قد تكون من صنف هذه الكلمات التي تقولها جدتي ... إنها تكون جميلة جداً إذا استطاع الشاب أن يقول مثلها ؛ وأحسبه لا يستطيع ، لأن جدتي كبيرة ، وقد قرأت كثيراً في الأدب ، ووعت كل ما جاء في القصص ... وأنا نفسي لا أشعر بأية طلاوة فيما ترغمني على قراءته لها في هذا الكتاب العتيق الجاف ، مع أنها تكاد ترقص طرباً عند بعض فقراته ؛ ولا أدري لماذا تفرح بهذا الهراء السخيف الذي لا أفهمه . لقد قصت عليّ من أمر بكّا شارب والفتاة المسكينة إيمي ، وكان قصاري حكمي على شارب أنها سافلة قليلة الأدب لأنها لم تحب زوجها كما أحب أنا أمي . وبمثل ذلك حكمت على هذا اللورد التاعس ليستر الذي ضحى إيمي ليتزوج الملكة ... ولكن ... لماذا حزنت إيمي ؟ ولماذا أحَبَّته ؟ هل كانت يتيمة ليس لها أم تحبها ولا أب تحبه ؟ ولكن هذا كله ما قيمته إذا قيس بالموسيقى التي ينبض بها قلب الشاب ... »

ومرت هذه الخواطر كلها في قلب الفتاة في اللحظة القصيرة التي تلت صمت الجدة ، ثم سألتها حفيدة في سذاجة الصبي وطهارته

— « بالله ياجدة ! ما هذه الموسيقى التي ينبض بها قلب أحد من الناس ؟ »

وانفرج فم العجوز عن ابتسامة كبيرة ، ثم ربتت بأناملها المرتجفة على خد الصغيرة ، وقالت لها : « اقرئي » ، وأطاعت الفتاة ، وراحت تقرأ كالببغاء ، ولا تكاد تفقه شيئاً مما تقرأ

* * *

واعتدل الجو ، وسكنت الريح ، واهتز النبات ينفض قطرات المطر كالطيور الصغيرة ... وانتشرت عصافير السنونو في السهل الفياح توقع على شجيراته ألحانها ، وأشرقت الشمس لتشترك في مهرجان الطبيعة بآرادها الذهبية الناعمة ... ولبثت العجوز تنتظر عودة الفتى والفتاة بنفس مشوقة وقلب خفيق ، حتى أقبلا آخر الأمر ، وفي وجه الفتى صُفرة وفي ساقيه رجفة ، وقد مشت الفتاة هذه المرة في إثره ، لا تعرف العجوز لماذا ...

ولما جاوزا أرسل الفتى نظرة وسنانة من عينيه النافذتين ناحية فتاتنا حفيدة العجوز ... ثم مضى في سبيله حتى كان في سفح الجبل .. وهنا نهضت عجوزنا مهرولة إلى السفح كذلك ، وحفيدتها تتعثر في خطاها خلفها ، وفي قلبها سرب من الهواجس عن هذه الموسيقى التي تستطيع القلوب أن تنبض بها ... ثم عن هذه النظرة التي رمقها بها الشاب المار ، والتي لم تعرف بم تفسرها ..

« إنه شاب ريان كما ذكرت جدتي ، وإن له لعينين نفاذتين كما قالت ... ولكني لم ألمسه حتى أحس دمه الذي يتدفق في عروقه فأعرف إذا كان حاراً حقاً ... وكذلك قلبه الذي ينبض بالموسيقى ... لابد لكي يسمعها الإنسان من أن تكون له (سماعة) طبيب أو على الأقل ، لابد من أن يضع الانسان أذنه فوق صدره ، ليعرف ما هنالك .. على أن وجهه أصفر كالموتى .. فما السبب يا ترى ؟ هل هو مريض ... ؟ »

وظلت هذه الهواجس تضطرب في صدرها ، وجدتها تنهب الطريق في إثر الفتى والفتاة ، حتى إذا كانت حذاءهما ، أقرأتهما سلاماً جميلا ، فردّاه أحسن رد وأطيبه ، وافتر فم الشاب عن ابتسامة حلوة حيا بها الفتاة ... فلم تدر كيف ترد عليه ابتسامته ...

وجلست الفتاة تقرأ لجدتها في ضوء مصباح عليل . وجدتها ما تلبث أن تتثاءب وتتثاءب ... حتى تضايقت حفيدتها من ذلك ولم تبال أن تقول :

— إذن نبقى القراءة إلى الصباح ياجدة ، ولا بد أن تذكري لي شيئاً عن هذه الموسيقى العجيبة التي تنبض بها القلوب

فقهقهت الجدة حتى بدت نواجذها وقالت : هل تذكرين حينما كنت أزوركم وذهبنا في المساء إلى (السرك) ؟ فلما انتهت الموسيقى قلت لكم إنها لِبَاخ ؟ » فبسمت الفتاة ، وقالت : « ومن

باخ يا جدة ؟ » فأجابتها : « موسيقى عظيم يا تلدا » فقالت تلدا : « وما شأنه فيما سألتك عنه ؟ » فقالت الجدة : لقد كان باخ يوقع على بيانه بأنامله ، وفى الحقيقة لقد كان يوقع عليه بقلبه؟ » فتجهمت تلدا وقالت : « تعنين أنه كان يتكىء على البيان بصدره؟ فتضاحكت العجوز وزجرت تلدا ، ثم قالت لها : « هذه يا تلدا أشياء كالعلوم التى تتلقينها فى المدرسة ، هل تستطيع فتاة فى السنة الأولى أن تفهم درساً من دروس السنة الخامسة ؟ » فهزت الفتاة رأسها الجميل وقالت : « طبعاً هذا غير ممكن ! » فقالت الجدة : « فهذا مثل ذاك يا بنية ! » ثم أمرتها أن تقرأ ، ففتحت الكتاب وما كادت تقلب صفحاته باحثة عن الباب الذى كانت تتلوه ، حتى تثاءبت جدتها بشدة ، فجعلت تلدا تقلب وتقلب إلى أن أغمضت العجوز عينيها ، وألقت على سنادة الكرسى رأسها ، وغطت فى سبات عميق

* * *

وقذفت تلدا الكتاب على سريرها ، ثم انطلقت إلى مكتبة جدتها فجعلت تقلب فى الكتب ، وتنظر إلى الرسوم والصور ، حتى عثرت آخر الأمر على قصة دانتى الرائعة المسماة (الكوميديا الإلهية) ، وكانت نسخة هذه القصة مصورة حافلة بالرسوم الزاهية بالألوان الطبيعية ... فجلست تتفرج بها ، وتنعم النظر فيها ، حتى اهتدت إلى الصورة الخالدة الباهرة ، صورة پولو وفرنشسكا ، وهما متعانقان فى الجحيم ، وقد انطبق فم پولو على ثغر حبيبته ، وراح يقبلها تقبيلا حاراً ، يخفف عنهما ما هما فيه من عذاب السعير

ولبثت تلدا تنظر فى الصورة وتتعجب ... « ترى ماذا يصنع هذا الشاب الريان فى هذه النار المتقدة ؟ إنه يضع وجهه فى وجه امرأة ويقبلها كما تقبلنى أمى حينما أكون مغضبة ! ألا يحس هذه النار المتأججة حوله ؟ هل هـذه المرأة ابنته ؟ لا شك أنها ابنته ، وإلا فلماذا يقبلها ! »

ثم قرأت فى أسفل الصورة هذه السطور :

« پولو يقبّـل حبيبته فرنشسكا فى سواء الجحيم ، غير عابئ بالنيران التى تشتعل فى ساقيه وتلتهب من حوله ... وهكذا قضى الله أن يكون الحب عزاء للمحبين حتى فى وهادِ سقر ... فهو الماء العلوى الذى يطفئ النار المندلعة بين جوانحهم والقبلة ثمرته المشتهاة ، وسَحْرُه وجناه ! »

وبرقت عينا تلدا ، وحملت الكتاب ذا الصور إلى حيث راحت جدتها تغط وتزعج البوم بشخيرها :

— جدة ، جدة ، استيقظى !

— ماذا ... ما ... ذا ...

— استيقظى وحياةِ أبيك !

— ماذا يا تلدا ؟ لماذا لا تقرئين ؟

— ها أنا ذى أقرأ والله ! اسمعى :

ثم شرعت الفتاة تقرأ السطور التى تحت صورة پولو وفرنشسكا :

— ما هذا يا تلدا ؟ ! الكتاب تأريخ للأدب الإنجليزى ، وپولو وفرنشسكا شخصان خرافيان اخترعهما دانتى الإيطالى ! هاتى الكتاب !

وتناولت العجوز الكتاب ، ونظرت فى الصورة ، ثم عبست وبسرت وأقفلته لترى ما هو ...

— هذه كوميدية دانتى من أين جئت بها ؟

— من المكتبة ...

— آه ياخبيثة ... كان يجب أن أبقى المفتاح معى ... الصور التى من صنف هذه الصورة ، والموسيقى التى تنبض بها القلوب ، من دروس السنة الخامسة ، ولا تستطيع تلميذة السنة الأولى أن تفهم دروس السنة الخامسة !

* * *

وفى صبيحة اليوم التالى قرع الباب قادم فأهرعت تلدا لتلقاه

— أهو أنت ؟

— أجل ، هو أنا !

— وأين الفتاة التى كانت معك أمس فوق الجبل ؟

— فى المنزل

— وما هذا الورد الجميل ! أتُسْعطينى وردة ؟ !

— إنه كله لك !

— كله ؟ !

— أجل ...

— والفتاة التى كانت معك ، ألا تأخذ منه شيئاً ؟

— إنها أختى !

— أختك ؟ وهل أختك لا تحب الورد ؟

— ومن ذا الذي لا يحب الورد ؟ إنها تحبه جداً

— إذن لا آخذه كله يجب أن تبقى بعضه لأختك

ثم صاحت جدتها تسألها مع من تتكلم ، فقالت للشاب :

— ما اسمك أيها الشاب ... الر ... يان ؟

— فكتور !

فصاحت تجيب جدتها :

إنه فكتور يا جدة !

— فكتور ؟ ! ومن فكتور ؟

— أجل فكتور ... الشاب الذي رأيناه على الجبل أمس

وأقبلت العجوز الحيزبون مهرولة فسلمت على الشاب ودعته إلى حجرة الجلوس ، فدخل ومعه باقة الأزهار الكبيرة

— مرحباً بك يا فكتور ، كم أنا سعيدة بك

وكانت تتكلم وذكرياتها القديمة ثائرة كلها في صدرها العجوز والدم العجوز يتدفق في عروقها الضعيفة ... والمفاجأة الحلوة تعقد لسانها فتأخذها ربكة مضحكة

— هذا الورد جميل ... أوه ... ذاك سوسن ما أبهاه ! وبنفسج ، لمن حملت كل هذا يامسيو فكتور ؟

— لـ ... لهذه الأخت الصغيرة ... و ... لك يا أماه

وبلعت العجوز ريقها ، ونظرت إلى حفيدتها في حنق ، وقالت للشاب :

— والفتاة الجميلة التي كانت معك أمس ؟

فقالت تلدا :

— إنها أخته يا جدة

— أخته ؟ أحقاً هي أختك ؟

فقال الفتى : « إي وربي ، إنها أختي »

فقالت العجوز : « إذن ... احمل هذه الباقة إليها ... فهي بها أحق ... »

فقال الشاب : « ولكني قطفتها بيدي من حديقتي هدية لحفيدتك ! »

وتدخلت تلدا فقالت له : « من حديقتك ؟ إذن أنت تملك حديقة ؟ »

فقال لها : « أجل ، وهي حديقة غناء ، تليق بك »

فقالت له : « وهل تأذن لي في زيارتها ؟ »

فقال : « ولم لا ... إنك تكونين أبهى زهرة فيها ... »

ولم تطق العجوز أن تسمع إلى كل ذلك ، فصرخت صائحة « كفى ! حسبُك ، أرجوك »

بيد أن الفتى ما زال بها حتى وعدت أن تزوره في صحبة حفيدتها بعد يوم أو يومين

* * *

وكثرت زيارات العائلة المقدسة لحديقة الفتى ، وتوثقت بينهما عرى الصداقة والتحاب ، وكانت أخته الجميلة التي حسبتها العجوز حبيبته من قبل تلقاها فيأنسان إليها

وذهبت تلدا مرة وحدها تزور حديقة فكتور ففرح بها أيما فرح ، وقطف لها أحسن وردة وأبهاها ، وجاءها بتفاحة كبيرة حمراء ؛ ثم جلس بجانبها برهة ، وجعل يحدق فيها بصره

ثم اقترب منها فلم تبتعد ...

ولمس جسمه جسمها فأحست بدفء ولكن ليس كالدفء الذي ينبعث من النار ... ثم لمحت في عينيه شيئاً غريباً فلم تجسر أن تسأله عنه ... ثم مد إليها يده فمدت إليه يدها ... فأخذها في كلتا راحتيه

وتركت الأزهار تسقط على العشب أمامهما

وأبصرت عبرة تترقرق في عينيه فسألته لماذا يبكي ؟ فلم يجب ثم ارتبك قليلاً وقال لها بلسان متلعثم : « تلدا ! » فقالت له : « نعم يا فكتور ؟ » فقال لها والخجل يبعثر الحروف من شفتيه : « أتأذنين لي في ... قبلة ... ؟ »

* * *

وسمعا وراءهما هاتفاً يقول :

« فرنشسكا ... بولو ... »

فنظرا ... فإذا هي الجدة العجوز الحيزبون

وكان هذا في سن تلدا التي لم تبلغ الثالثة عشرة ... وبعد ثلاث سنين أخر ... كانت موسيقى جميلة تصدح في حديقة فكتور ، انتظاراً لقدوم عروسه تلدا

دريني خشبة